# المبحث الثاني

## أثر السياق القرآني النسقي فِي الدلالة على التقديم والتأخير

ولما كانت الألفاظ قوالب المعاني وكان بعضها أكثر دلالة على المعنى، وتقديم اللفظ أو تأخيره هُوَ مطابقته لمقتضى الحال، وإظهار الذوق الجمالي القائم على التحليل اللغوي[١].

والتقديم والتأخير شكل من أشكال العدول التي تحقق فائدة دلالية لا تكون بوضع الكلام على أصله، وتقديم ما من شأنه التأخير أو تأخير ما من شأنه التقديم هَذَا من أغراض البيان، وَهُوَ من أبرز وأهم الظواهر البلاغية فِي لغة العرب[٢].

وتتعدد الأسباب التي يقدم اللفظ من أجلها أو يؤخر عند العلماء، فأرجع سيبويه الأمر إلى الاهتمام والعناية[٣]، وقصده من ذَلِكَ هُوَ اهتمام المتكلم باللفظ المتقدم أو المتأخر وعنايته به، وأرجعه الزمخشري إلى الاختصاص[٤]، أي: يختص بدلالة اللفظ على المعنى، ولو أخّر المقدم، أو قدّم المؤخر لتغير المعنى، لاختصاصهما بما يوجب له ذَلِكَ لبيان المقصود من المعنى[٥].

---

(١) ينظر: اللباب فِي قواعد اللغة: ١٦٤؛ وينظر: من الإعجاز اللغوي فِي القرآن: ٢٦٨.

(٢) ينظر: من الإعجاز اللغوي فِي القرآن: ٢٦٨؛ وينظر: البيان القرآني فِي تفسير رموز الكنوز: ٧٠؛ وينظر: جماليات السياق القرآني: ٦٩.

(٣) ينظر: الكتاب: ٥٦/١.

(٤) ينظر: الكشاف: ٥٨/١.

(٥) ينظر: من الإعجاز اللغوي فِي القرآن: ٢٦٩؛ وينظر: البناء اللغوي فِي الفواصل القرآنية: ٥٨؛ وينظر: البيان القرآني فِي تفسير رموز الكنوز: ٧٠؛ وينظر: أصول النظرية السياقية الحديثة: ٢٣.

ويرتبط التقديم والتأخير بالسياق القرآني نسقياً، وتقدم الكلمات وتؤخر فِي القرآن الكريم لغاية دلالية إعجازية وأليق فِي إفادة المقصود ووقعه على النفس البشرية والتأثير فيها، والسياق هُوَ الذي يلعب الدور الأكبر فِي إفادة ذَلكَ المقصود[1].

ومن أمثلة التقديم والتأخير، قوله تعالى: ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ﴾[2]، وهنا تقدم لفظ ﴿ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ﴾ على ﴿صَلُّوهُ﴾ أي: تقديم المفعول على الفعل، لاختصاص الجحيم بهول العذاب، ومراعاة لحسن النظم السجعي[3]، وجمال الأداء النسقي والترتيبي وهذا من روائع الإعجاز.

وقوله تعالى: ﴿وَٱقْتَرَبَ ٱلْوَعْدُ ٱلْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَٰخِصَةٌ أَبْصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾[4] فآثر التعبير القرآني تقديم الخبر ﴿شَٰخِصَةٌ﴾ على المبتدأ ﴿أَبْصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ وذلك لتخصيص الأبصار بالشخوص دون غيرها، وأنّ الشخوص خاص بالكفار دون غيرهم؛ لذا دلَّ بتقديم الضمير أولاً ثم بصاحبه ثانياً[5]، والأسباب الأخر فِي هَذَا التقديم والتأخير فِي هَذَا الموضع والمقام هُوَ السياق الذي جاء مصوراً لحال هؤلاء الكفار يوم القيامة، إذ تشخص أبصارهم من هول ما يرون من العذاب يومئذ، فلا تطرف أجفانهم، فهذا التعبير يصور ما هم عليه من رعب وفزع[6]. وهذه صورة أخرى لجمال

---

(١) ينظر: جماليات السياق القرآني: ٦٩، ٧٠.

(٢) سورة الحاقة: ٣٠-٣١.

(٣) ينظر: البناء اللغوي فِي الفواصل القرآنية: ٥٩، ٦٠.

(٤) سورة الأنبياء: ٩٧.

(٥) ينظر: المثل السائر: ٣٨/٢.

(٦) ينظر: من الإعجاز اللغوي فِي القرآن: ٢٩٢.

الترتيب النفسي للجوارح، إذ تشاهدهُ العين أولاً وهي التي بها يكون هول المنظر والخوف والفزع والشدة وتأتي بقية الجوارح بحسب أنساقها وترتيبها.

**– أهمية التقديم والتأخير بين النحاة والبلاغيين:**

الأصل فِي الجملة الترتيب على النمط المعهود من قواعد النحو العربي، فالخبر لا يقدم على المبتدأ، والفاعل لا يتقدم على فعله، فالألفاظ قوالب المعاني، فيجب أن يكون ترتيبها الوضعي بحسب ترتيبها الطبيعي، ومن البيّن أنّ رتبة المسند إليه التقديم، لأنه المحكوم عليه، ورتبة المسند التأخير، إذ هُوَ المحكوم به وما عداهما فتوابع ومتعلقات تأتي تأليه لهما فِي الرتبة، وتسمى الفضلة[1].

واستناداً إلى أهمية كُلّ عنصر من عناصر الجملة فِي البيان وأولويته فِي ترتيب المعاني، وبلاغة الكلام هي مطابقته لمقتضى الحال مع فصاحته ومقتضى الحال مختلف، فإنّ مقامات الكلام متفاوتة، والبلاغة صفة راجعة إلى اللفظ باعتبار إفادته المعنى عند التركيب، فقد يعرض لبعض الكلم من المزايا ما يدعو إلى تقديمه، وإن كَانَ حقه التأخير، فيكون من الحسن تغيير هَذَا النظام ليكون المقدم مشيراً إلى الغرض الذي يراد ومترجماً عمّا يقصد به، لذا يعد التقديم والتأخير واحداً من أهم صور العدول عن الأصل التي اهتم بالحديث عنها النحاة والبلاغيون على السواء كُلّ من منظوره، وَقَدْ غلب الذوق الجمالي القائم على التحليل اللغوي على تحليلات البلاغيين وبعض المفسرين لها[2].

وتكمن أهمية التقديم والتأخير فِي:

---

(١) ينظر: الدلالة والمعنى: ٢٤٠؛ وينظر: علوم البلاغة: ١٠٠؛ وينظر: البلاغة العربية: ٣٥٠.

(٢) ينظر: البلاغة العربية: ٣٥١/١؛ وينظر: الإيضاح في علوم البلاغة: ١٣؛ وينظر: علوم البلاغة: ١٠٠؛ وينظر: من الإعجاز اللغوي في القرآن: ٢٦٨.

١- الاهتمام والتعيين[١] الأهمية لا تعني الأفضلية، فقد يقدم المفضول على الفاضل، والمتأخر على المتقدم أو العكس، بحسب ما يقتضيه المقام والسياق المراد غايته فيها[٢].

٢- التخصيص، هُوَ تخصيص الشيء المراد بيانه وإبراز أهميته ودوره الدلالي والبلاغي[٣].

٣- وَقَدْ تكون أهمية التقديم والتأخير إجبارية، لعلة نحوية، فلا يجوز الرجوع عنه إلى الأصل، وحينئذٍ يخرج من مباحث البلاغة[٤].

٤- وَقَدْ تكون لفائدة دلالية لا تكون بوضع الكلام على أصله، فيكون التقديم موافق السامع للاهتمام، واختلاف الترتيب بين المعمولات فِي بيان الدلالة إمّا لأمر معنوي، وغرض بلاغي يتعلق بالمعنى يؤمن اللبس، كقوله تعالى: ﴿ وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ ﴾[٥]، فلو أخّر المجرور لتوهم أنّه من صلة الفاعل، والمراد كونه من صلة فعله[٦].

أو لأمر لفظي، وغرض صوتي وإيقاع نفسي، كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴾[٧]، فلو قدم الفاعل لاختلفت الفواصل؛ لأنّها مبنية

---

(١) ينظر: الكتاب، لسيبويه: ٥٦/١؛ وينظر: دلائل الإعجاز: ٩٧.

(٢) ينظر: من أسرار البيان القرآني: ١١٥.

(٣) ينظر: الكشاف: ٣/١؛ وينظر: الإتقان: ١٥٨/٣؛ وينظر: الدلالة والمعنى: ٢٤١.

(٤) ينظر: المقتضب: ٣٤٥/٢؛ وينظر: من الإعجاز اللغوي في القرآن: ٢٦٨.

(٥) سورة يس: ٢.

(٦) ينظر: جواهر البلاغة: ١٥٩.

(٧) سورة النجم، من الآية: ٢٣.

على الألف[1].

وَهَذَا يعني أنّ ترتيب الكلمات فِي العبارة يتبع أحوال النفس وما يشار من معانٍ وصور، وإلى الحال والموضوع داخل السياق، أي يتأثر التقديم والتأخير بالسياق اللغوي والخارجي للجمل[2]، وهذا التناسق والترتيب هو الذي أعطى للسياق جمالية في توضيح وتبيين المعنى.

**أ – تقديم المسند إليه:**

إنّ مرتبة المسند إليه التقديم، وذلك لأنّ مدلوله هُوَ الذي يخطر أولاً فِي الذهن؛ لأنَّه المحكوم عليه، والمحكوم عليه سابق للحكم طبعاً فلهذا تقدم وضعاً، ولتقديمه دواعٍ شتى، منها[3]:

١- تعجيل المسرة: قَالَ تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[4].

٢- تعجيل المساءة: قَالَ تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾[5].

٣- التشويق إلى المتأخر: قَالَ تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾[6].

٤- التلذذ: قَالَ تعالى: ﴿وَبِأَيْمَٰنِهِم بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ﴾[7].

---

(١) ينظر: جواهر البلاغة: ١٥٩.

(٢) ينظر: الدلالة والمعنى: ٢٢٨.

(٣) ينظر: جواهر البلاغة: ١٢٣؛ وينظر: الخلاصة فِي علوم البلاغة: ١٦؛ وينظر: البلاغة الميسرة: ٤٠٠، ٤٠١.

(٤) سورة آل عمران: ١٣٤.

(٥) سورة البقرة: ١٥.

(٦) سورة الحجرات: ١٣.

(٧) سورة الحديد: ١٢.

٥- التبرك: قَالَ تعالى: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْرٖىٰهَا﴾[١].

٦- ومنها النص على عموم السلب أو سلب العموم: قَالَ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٖ فَخُورٍ﴾[٢].

٧- التخصيص: قَالَ تعالى: ﴿فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللَّهُۚ﴾[٣].

٨- مراعاة الترتيب الوجودة: قَالَ تعالى: ﴿لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوْمٞۚ﴾[٤]، وهذا الترتيب والتناسق هو مما حددته دلالات الألفاظ، وترتيبها ومدلولاتها المعجمية ؛ إذ قسموا (السِنّة) والذي تبدأ بداياته ومقدماته قبل النوم، وهذا الترتيب وهذا النسق هو من الإعجاز اللغوي؛ إذ الاستحالة للسِنة استحالة للنوم، وهذا محال في ذات الله تعالى.

**ب- تقديم المسند:**

يقدم المسند إذا وجد باعث على تقديمه كأن يكون عاملاً[٥]، قَالَ تعالى: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ﴾[٦].

وهناك أغراض أخرى لتقديمهن منها:

١- التخصيص بالمسند إليه: قَالَ تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ﴾[٧].

---

(١) سورة هود، من الآية: ٤١.

(٢) سورة لقمان: ١٨.

(٣) سورة الأنفال: ٦٢.

(٤) سورة البقرة: ٢٥٥.

(٥) ينظر: جواهر البلاغة: ١٣٦؛ وينظر: البلاغة الميسرة: ٤٠٧.

(٦) سورة النساء: ١١.

(٧) سورة آل عمران: ١٨٩.

٢- التشويق للمتأخر إذا كَانَ فِي المتقدم ما يُشوق لذكره: قَالَ تعالى: ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾[١].

٣- إفادة قصر المسند إليه على المسند: قَالَ تعالى: ﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ﴾[٢]. وَقَالَ تعالى: ﴿ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ ﴾[٣].

**- تقديم متعلقات الإسناد:**

تقدم متعلقات الإسناد لأغراض منها[٤]:

١- **التخصيص**: قَالَ تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾[٥]. وقوله تعالى: ﴿لِإِلَى ٱللَّهِ تُحْشَرُونَ ﴾[٦]، معناه إليه لا إلى غيره.

٢- **الاستغراق**: قَالَ تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا ۚ ﴾[٧]. معناه لجميع الناس من العرب والعجم لا لبعضهم.

٣- **التعريض**: قَالَ تعالى: ﴿وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴾[٨]، يعني فيها تعريض للأهل الكتاب فيما يؤمنون به فِي الآخرة؛ لأنّ أهل الكتاب ينكرون أن تكون

---

(١) سورة آل عمران: ١٩٠.

(٢) سورة الكافرون: ٦.

(٣) سورة الزمر: ٦٦.

(٤) ينظر: بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح فِي علوم البلاغة: ٢٠٩/١، ٢١٠؛ وينظر: جواهر البلاغة: ١٦٣؛ وينظر: خصائص التراكيب: ٣٦٤، ٣٦٧.

(٥) سورة الفاتحة: ٥.

(٦) سورة آل عمران، من الآية: ١٥٨.

(٧) سورة النساء: ٧٩.

(٨) سورة البقرة: ٤.

فِي الآخرة لذائذ جسمانية، فالمؤمنون يوقنون بالآخرة عند الله بكل ما وعدهم الله فيها، وهذا مما حددهُ سياق النسق والترتيب في الآية الكريمة.

**اهتماماً بشأن المقدم:** قَالَ تعالى: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ﴾[1] اهتماماً بشأن الفعل؛ لأنّها أول آية نزلت، وهذا الترتيب في الاهتمام حددهُ السياق النسقي للآية، واستمر هذا الاهتمام في جميع القران الكريم لأهمية العلم والقراءة ولفضله على غيره من العلوم وما يترتب على العلم من فضل ومزية إلى يوم الدين.

(١) سورة العلق: ١.